طرائف من العصر المملوكي :

رسالة الدار عن محاورات الفار

أو فن القصة

الأستاذ محمود رزق سليم

هذا عنوان طريف حقاً ، يثير الطرب ، ويدفع السامع إلى تلمس الخبر واستطلاع الأثر . فكم للفار بين الدار من آثار ، وكم للدار عند الفار من أخبار ، وما ينبئك مثل خبير . فهو يثب فتوقها ودعى شقوقها . يتخذ من أحجارها مأمنه ، وبين جدارها مسكنه . فحفظ أخبارها وكتم أسرارها . والدور تتقلب بها الأيام كما تتقلب بالرجال . فتشقى مرة وتسعد أخرى . وتفيض تارة بالخير ، وتبوء تارة بالفراغ منه . وعليها من خارجها طلاء يغشى جدرها ، يبهر العين ويخدعها عما وراءها .

أما الفأر فهو بها الضيف المقيم ، والزائر الذى لا يريم . يشاركها فى سرائها وضرائها . يسعد إذا هبت عليها انسام السعادة ، ويشقى إذا عصفت بها ريح الشقاء .

وكثيراً ما تضم دور الكرماء طوائف الفيران وجماهير الجرذان . ولها مما فضل نصيب ، تمد منه الوائد ، وتتنادى إليها ضيافن ، لم يوجه لها نداء ولم يرسل إليها استدعاء ، فحسبها أنها فى دور الكرماء ا فتملأ البطون وتعيى الحصون ، وتسهد إلى وقت سامرة ، وتنقلب إلى مخادعها شاكرة ذاكرة . — أما دور البخلاء — جنبت جنابها ووقيت أعتابها — فإنها لا فضل فيها لجائع ، ولا ثمالة لظامىء ، ولا ستر لمحروم . طالما نصب أهلها للفأر المصائد ، ودبروا المكائد . فانقلب عنهم ساباً شاتما يذكرهم بكل قبيحة ، ويرميهم بكل مذمة : ونفسه فياضة منهم بالعجب لأنهم يختزنون — فضلا عن المال — ألواناً من الطعام والشراب . فإذا لم يكن للفأر فيها نصيب ، فلمن يختزنونها ، ولأى شىء يقتنونها ؟

والعجب كل العجب أن يلتئم الغنى والبخل ، وينسجم الفقر والبذل ! أما الأغنياء فبخلاء ، لا يدنون باسم الأناقة والنظافة ، والخوف من الداء وانتشار الوباء ، يرأبون الصدوع ، ويسدون الفرج ، ويغلظون الدهان ، ويبنون الفخاخ . وإذا طعموا فبالقسطاس ، وإذا شربوا لا يبقون فى الكاس . وإذا أفضلوا فاليسير من الفتات الذى لا يصلح للأقوات ؛ فلا يقوى عليه الضعيف ، ولا يسمن منه النحيف .

أما الفقراء فكثير منهم كرماء . ينضحون بالبر على بنى الحيوان من الإنسان وغير الإنسان . يتهاونون فى الحرص على أطعمتهم وأشربتهم ، ويهملون الجدار حتى يمتلىء بالأحجار ، فتمج بالزائرين من كل أمة .

والفأر بينهم من الأعيان ، يجد فى الدار مسرحه ، وفى الجدار مطرحه . وله بين هذا وتلك ما شاء من طعام وشراب ...

وتنعقد بينه وبين الدار صحبة يمتنها المقام ويمكنها الالف ، فلا يبى كلما بان عنها يذكرها ، وهى لا تفتأ كلما غاب تفتقده ... ولو على رضا منه ، وكره منها .

وكثيراً ما تنتقل الصحبة بينهما من الدار إلى أصحابها ، ومن الجدر إلى أربابها . فتزول الوحشة ، ويقوى الأنس ، وتستأنس العين . حتى ترى وفود الفأر تترى زرافات لا تهاب ولا توجل . وتدير أعينها فى الحاضرين كأنما تتقاضاهم أجر الحراس وثمن الإيناس ...

وهذه الدار التى تنشر رسالتها وتقص للناس قصتها ، وتحب أن تحدثهم عن الفار ووفوده إليها ، وتبسط لهم ما دار بينها من الحوار عن عهد رخائها وبؤسها ، وأيام عزها وليالى تعسها ، هى دار شاعر ا عاش فى العصر المملوكى . وهو عصر ، كما علمنا ، لم يدر للشعراء دره ، عاشوا فيه عيش الحرمان ، بينما سال سيل خيره فى غير مجاريهم ، وفاض ثريه دون وديانهم .

أما الشاعر فهو صفى الدين الحلى الذى طوحت به الأيام فنزح عن بلاده ، وحمى آبائه وأجداده ، إلى ملوك بنى أرتق بماردين ، وتنقل فى مساكنها من دار إلى دار ، حتى استقر فى « دار ابن الدكناس » وكتب على لسانها هذه الرسالة .

ولهذه الرسالة أو المقامة سبب اتخذه الشاعر الناثر وسيلة لأن يكتبها على لسان داره .

وقد أفصح عن هذا السبب بقوله :

« أنشأتها عن لسان الدار التي أسكنها بماردين ، وتعرف بدار ابن الدكناس ، إلى القلعة الشهباء . وأرسلتها إلى السلطان الملك الصالح أبي المكارم شمس الدين . أشكو بفحواها مماطلة نائب له بدين ، كان بعضه لي ، وبعضه على يدي ، بمبلغ طائل كتبه على نفسه ، وأخرجه على مصالح الدولة ، وتعذر عليه وفاه . ولم أوثر مخاشنته لسابق صحبة بيننا . فأنشأتها على سبيل الخلاعة والمزاح . فلما وقف السلطان عليها أطلق المال من خزانته العالية . » الخ .

وقد بدأت الرسالة بأن تكلمت الدار . فسمت ، وتقدمت وتسمت . وأخذت تخاطب القلعة الشهباء مقام الملك الصالح فدحتها وأثنت عليها . ثم انتقلت إلى الشكوى مما أصابها من هجر ما لسكها الأول ، بعد أن رأت منه ضروباً من العز والنعيم والتمتع . ثم مما كابدت من بعده من هم وبؤس . حتى هال فيرانها بؤسها ، فتحدثت عنه فيما بينها ، وأهمها أمرها ، فتناقشت فيه واتخذته موضوعاً لجدال حاد .

فقام من بين الفيران خطيب سرد قصة الدار على سامعيه ، ثم أوصاهم بالساكن الجديد خيراً . — والساكن الجديد هو صفي الدين ! — ثم تحدثت الدار عما كان من أمر صفي ، وكيف أنه أعاد إلى رحابها عهد السرور والأنس ، ومد فيها موائد الحبور والبهجة ، حتى ضاقت ذات يده ، وتغيرت به الأحوال ، وتقلب عليه الليل والنهار . حتى جأرت الدار بالشكاية له ورثى لحاله فيرانها ، وعاد أمره بينها مثاراً لجدل جديد ...

ثم بينت أن سبب نكبته ، ذلك الدين الذي أقرضه لنائب السلطان ... وتضرع الدار في الخاتمة إلى القلعة الشهباء أن ترثى لحالها وتقبل شفاعتها في ساكنها ، حتى يرد إليه دينه فتسعد حاله .

هذا ملخص سريع لمقامة صفي الدين . ومما قالته الدار في مفتتحها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . المملوكة والمحرومة المرحومة ، الموحشة بعد الإيناس ، دار ابن الدكناس ، تقبل الأرض بين يدي القلعة الشريفة ، والذروة المنيفة . العزيزة الثناء سيدة القلاع ، وواسطة عقد البقاع ، وإنسان عين اليفاع ، التي قلائدها النجوم ، ومطارفها الغيوم ، وقرطاها الفرقدان ، وقلباها السماكان . ونطاقها الجوزاء . ومجولها الهواء . وفرقها المجرة ، ونثر إكليلها الإكليل والنثرة ، حصن النجباء وكهف الغرباء وكعبة الأدباء . القلعة الشهباء . » ... الخ ومن شكواها قوله :

« وتنهى أن المملوكة ، والمظلومة المنهوكة ، يسكنها الحياء والأدب . وينطقها الإعياء والنصب . وشكوى الجماد إلى الجماد ، كشكوى العباد إلى العباد . وإن المعهود ، من تقادم العهود ، أن الله إذا خص مخلوقاً بنعمه ، عم بها أبناء جنسه ، وأشركهم فيها مع نفسه » . إلى أن قالت تصف حالها بعد ساكنها : « فلما طوحت بساكنها الأيام ، إلى أقصى الشام ، جفاها الإخوان حيناً طويلا ، وهجرها الرفاق هجراً طويلا ، فكابدت بعده هما وبوسى ، وأقامت فارغة كفؤاد أم موسى . لا تجد أنيساً في عراصها القفار ، ولا تسمع حسيساً غير صهيل الفار . حتى رثت لها أكثر البيوت ، وخيم على وجهها أسرة العنكبوت » ... الخ .

ومن كلام الجرذ الخطيب في إخوانه ، قوله بعد حمد الله والصلاة على النبي بتطويل وتنويع ، موصياً إخوانه بحسن لقاء الساكن الجديد — صفي الدين — راسماً لهم سياسة هذا اللقاء :

« هذه الدار المباركة أول تربة بركم أترابها . وأول أرض مس جسمكم ترابها . فلا يمكن على أيديكم خرابها . ألا وإنها منذ خلا مسكنها من ساكنها ، وتمكن العفاء من أماكنها ، جعلتموها ندوة نهاركم وليلكم ، وحلبة رجلكم وخيلكم ، والآن فقد انجابت عنها أيام البئوس ، وأفلت طوالع النحوس ، ولحظها الدهر بعين الرضا ، وقضى بسعدها فصل القضا . وتولاها نعم المولى . وابتدر لسكناها الصفي الحلي . وفي يومكم هذا يرسل إليكم من يلم شعثها ، ويطهر خبثها . ومتى رآكم بها سارين وفي قرارتها راسبين . كره مغناها ، واتخذ لنفسه سواها . فعاد ربعها كدارس . ومتى تقبلها إذا قابلها ، أخصب ربعها ، وتعدى إلينا نفعها . ألا وإن من استرشد بحكمتي ، واتبع كلمتي ، أثبته في أمتي ، وأتممت عليه نعمتي » ...

والرسالة تقع في نحو سبع صفحات من القطع المتوسط . وهي فكاهية النزعة إلى حد كبير ، جميلة الأسلوب رقيقة العبارة تمتاز عن رسائل صفي الدين الأخرى ، بالوضوح والسلاسة بالرغم من قيود البديع التي راعاها ؛ ولكنها سلمت من التعسف والثقل . وبها بعض الملتزمات اللفظية التقليدية المرعية في رسائل العصر من نحو « المملوكة » و « تقبل الأرض » و « تنهى » .

واجتمعت بها أغراض كتابية عدة منها الدعاء والشكوى والمدح والوصف والمجون والحكمة .

وقد عرضنا فى هذا المقال لهذه الرسالة لكى نبرز إحدى خصوصياتها الهامة ، وهى القص والحوار . ونستطيع أن نفهم منها أن فكرة النثر التمثيلى كانت تتراءى فى مخيلات بعض الكتاب فى ذلك العصر . وإن نقصها شىء من الإطالة ، والتناسق وحسن الترتيب وقوة الحبكة وروعة الوقائع ودقة الاتصال بينها .

حقاً ! أصبحت القصة فى عصرنا الحديث فى مقدمة فنون القول ، وكذلك التمثيليات . وألف من هذه وتلك ، وترجم عدد لا بأس به . وتناولها النقاد على اختلاف نزعاتهم بالنقد والتنويه والتعليق والتوجيه . وهم يبذلون محاولات جاهدة لكى يقننوا نقدهم ، ويضعوا له الأسس والمناهج ، حتى يعاونوا على تشييد صروح القصة والتمثيلية على دعائم متينة تسمق بفضلها إلى الكمال المنشود . —

غير أننا نكلف الأيام ضد طباعها ، ونرهق الزمن بما لا يطيق إذا نحن حاسبنا الأقدمين وفق شروطنا ، ووزنا أعمالهم بموازيننا ، ضاربين الذكر صفحاً عن الفروق بين ملابساتنا وملابساتهم ، واتجاه الزمن بنا وبهم .

والذى نحب أن ننوه به هو أن القصة كانت لها حياة ، وكان لها وجود ، فى العصر المملوكى ، ولو إلى حد ما . وأن من مظاهر حياتها — فضلا عن القصة الصريحة — المقامات والمحاورات والمفاخرات والموازنات والرسائل الوصفية ، وتراجم الرجال والأبطال .

وفى مقدمة ما نشير إليه من ذلك كله كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » .

ومؤلف هذا الكتاب هو شهاب الدين أحمد بن عربشاه الطبيب والمؤرخ الأديب صاحب كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » أصله دمشقى أنصارى ، ولد بدمشق عام ٧٩٦ هـ ، وقد هاجر مع أسرته منها حينما دهمها تيمور لنك التترى ، وطوحت به الأيام حتى طاف بآفاق آسيوية عدة ، ثم عاد إلى بلاد الأتراك العثمانيين واشتغل فى ديون إنشائهم ، وأتقن عدة لغات ، ومهر فى جملة علوم . واعتزل العمل بأخرة ، وعاد إلى وطنه . ويمم شطر حلب ، وزار مصر فى عهد سلطانه جقمق المملوكى وقال السخاوى إنه لقيه بها عام ٨٥٠ هـ . وقد لبث بمصر حتى وافاه أجله عام ٨٥٤ هـ ودفن بالخانقاه الصالحية .

نعود بعد هذا إلى كتابه « فاكهة الخلفاء » . فهو مؤلف قصصى بديع ، اجتمعت فيه الأمثال واكتنزت به الحكم ونجلت به ضروب الدهاء والحيل ، وغير ذلك من عدالة وصدق وأخلاق إنسانية ، لا بأسلوب فج جامد خشن صريح ، ولكن بأسلوب قصصى جذاب ممتع فيه خيال وتصوير ، فروى على ألسنة الحيوان مما يمشى على أربع ، ومما يطير بجناحين ، ومما يزحف على بطنه . فهو إذاً غير مبتكر لهذا الضرب من القص ، فقد سبقه به فى العربية عبد الله بن المقفع أول من سن هذه السنة الحسنة لمن جاء بعده من الأدباء والقصاصين فى كتابه « كليلة ودمنة » غير أن ابن عربشاه كان مبتكراً فى صلب القصص ومتن الحكايات . وقسم الكتاب إلى عشرة أبواب فى كل منها قصة طويلة يستطرد خلالها إلى قصص جزئية أخرى . ومن أبوابها — على سبيل المثال — باب فى نوادر ملك السباع وتدبيره أمير الثعالب وكبير الضباع ...

وقد جمع ابن عربشاه فى أسلوب قصصه بين طريقة ابن المقفع وطريقة كتاب المقامات وبخاصة الهمذانى والحريرى .

فابن المقفع ابتدع — كما يقال — شخصية « دبشليم » الملك أحد ملوك الهند ، يجلس فى محفله ويطلب إلى شخصية أخرى هى « بيدبا » الفيلسوف أن يحدثه ويضرب له الأمثال ، فيحدثه بيدبا ويقص قصصه على ألسنة الحيوان . وكذلك فعل ابن عربشاه فإنه افترض ملكا عظيما يحدثه رجل حكيم . ولكن بفارق يسير . ذلك أن الملك والحكيم كليهما أخوان لأب واحد كان من قبلهما ملكا عظيما خلف أبناء خمسة . وملك من بعده كبيرهم هذا وعاش الأربعة تحت ظله فى وئام وطاعة ، حتى عصفت بينهم ريح الشقاق والخلف . فتنافرت القلوب وتجافت النفوس وتفرقت الأهواء ، فمال الأمر لأصغرهم واسمه « حسيب » وكان حكيما فيلسوفا زاهداً . ولم يتركه أهل النم والوقيعة حتى أفسدوا ما بينه وبين أخيه الملك . فجمعه الملك فى حفل من أعيان دولته ، وأخذ يستطلع علمه وحكمته رغبة فى التشهير به وتسفيهه . فقاض بينهم بحكمه وأمثاله ، وساق قصصه على ألسنة الحيوان ، وتكرر الحفل وتمدد القص ، حتى اعترف له الجمع بالفضل والنبل .

(البقية فى العدد القادم)

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية